

تطلعات سكان بلاد المغرب القديم لما بعد الموت من خلال

النقوش الجنائزية.

د. بن عبد المومن محمد

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

1

جامعة وهران

مقدمة:

تعتبر نصوص شواهد القبور إحدى الشواهد الأثرية التي لم يستغن عنها سكان بلاد المغرب القديم، للتعبير عن أحاسيسهم، وشعورهم، فأمكن للدارسين استخلاص منها مادة أثرية وتاريخية، مكنت من التعرف عن جوانب حساسة من حياتهم، نستشف من مضامينها أحاسيس الألم، والفرحة، والخوف، والنصر، واخترنا في هذه الدراسة جزءا مهما من هذه المشاعر التي سطرها الأحياء ونسبت للأموات، المتمثلة في تطلعات سكان بلاد المغرب القديم نحو العالم الآخر، فكانت القاعدة الأساسية لكل شاهد قبر للتعبير عن بلوغ العالم الآخر.

وجدت الطبقات الاجتماعية المتواضعة من سكان بلاد المغرب القديم في النقوش الجنائزية وسيلة للوصول إلى الخلود بعد الموت، حيث كشف محتواها نصوص بعض النقوش عن الإخلاص المهني لأصحابها أثناء أداء مهامهم، كصاحب الحانة الذي نقش على قبره أنه لم يبيع الخمر المعشوش لربائنه¹، والبائعة التي كانت دوما تزن بضاعتها بالقسطاس دون أن تسرق في الميزان، لذلك زين قبرها برسومات العصافير، وأدوات الوزن، والفواكه، والأقنعة²، وصاحب الطاحونة الذي قام بواجبه بكل إتقان، وها هم سكان (مكتاريس) يمجدون إتقانهم في العمل بأبيات شعرية³، لكن السؤال المطروح: ما المقصود من هذا التفاخر بالوظائف على شواهد القبور؟ هل المقصود به الأمل من أجل المكافأة، والجائزة في العالم الآخر نتيجة الإتقان في العمل؟ أم أنها نقوش تبين بكل بساطة وظيفة المتوفى؟ لكن الرّاحح أن الاعتقاد بوجود حساب في العالم الآخر، يدفع بمؤلاء لأداء واجبهم بإتقان، لأنهم كانوا على دراية بوجود المحاكمة.

تنوع مضمون هذه النصوص، بين من تباهى أصحابها ببلوغ أرواحهم لعالم الخلود، كتلك التي عشر عليها (بمداورش) هذا نصّها: " .. لقد بلغت الإقامة إلى جانب الأرواح الورعة، لأنه المكان الذي يختفي فيه الأموات"⁴، مما يدل على انتشار الأفكار الإسكاتولوجية ببلاد المغرب القديم أثناء فترة الاحتلال الروماني، ومحتوى هذه النقيشة يشبه إلى حد كبير نص نقيشة عشر عليها بروما على شاهد قبر، ورد ضمنه مايلي: "... إن الميت الذي نزل إلى طبقة (الترتاروس - Tartarus) يجب عليه أن يصل لإقامة الأرواح الورعة..."⁵.

وحتى الأزواج كانوا يعتقدون في استمرار ترابطهم الزوجي في العالم الآخر، إستنادا لما ورد في نقيشة (دقة)، التي جاء فيها

:

" للآلهة (مان)

يحتوي هذا المعلم الجنائزي الخالد

على عظام الورعة (نوميذري مرسلينا-Numisia Marcellina)

وزوجها (كويبتوس لابينيوس أديتور- Quintus Labennius Adiutor)

لقد إجتماعا داخل تابوت واحد...

لم تستطع الموت أن تفرّق بينهما... " 6).

فمن بين ما يشير إليه نص النقيشة، هو الترابط الزوجي ما بعد الموت.

عرف سكان بلاد المغرب القديم سّر العالم الآخر، منذ طفولتهم، من خلال تلقين الأطفال وتحياتهم لما بعد الموت⁷، وفي هذا الصدد يجب الإشارة للنقيشة التي كشفت عنها التنقيبات بـ(قرطاجة) على تابوت روماني لطفل (ملقن)⁸، وبـ: (أمايدرة) على نقيشة، يحمل مضمونها إسم طفلة تدعى (إبوليا ليوريتا Julia Leporita) قد وعدت بالخلود، والتي نعتت بـ: (سكراتوس - Sacratius) بمعنى (الملقنة - Initié)⁹، التي لقنوها حياة العالم الآخر، لأن الأطفال الصغار (Ahoroi) احتاجوا دوما لحماية الآلهة، إذ وضعت مقبرة بـ: (تيدروس - Thysdrus) تحت حماية الإلهة (لونا- Luna)¹⁰، فإن مقبرة (حضر موتوم) احتوت على تماثيل صغيرة للإلهة (فينوس - Venus) الحامية من كل شر¹¹.

لجأت إحدى العائلات الإغريقية ذات الأصول المقدونية، بدفن عصفور مع ابنهم (كارمينيوس - Carminios) الذي مات في سن مبكرة، وفي ذلك دلالة على اعتقاد أن هذا الطفل قد احتاج لعطف يسمح له ذلك بتفادي الحكم الذي يلقاه البالغين، فلا يحكم عليه مثلهم، بل ستنهب روحه إلى حدائق الأطفال¹². مع العلم أن الطريق نحو السماء كان سهلا على أرواح الأطفال الذين يموتون في سن مبكرة¹³.

يشير نصب جنائزي بـ: (قيصرية) لأحد الأطفال الإغريق الذي مات في سنّ العاشرة من عمره، تبدو صورته منحوتة عند مدخل مقبب يشبه رسم الهلال المقلوب، ويعلمنا نص النقيشة أنه بسبب حرمان الطفل (بروكولوس- Proclus) من باقي مراحل عمره، يتمتع الآن بخلود شبابه إلى جانب الحورية (نيزا- Nysa) التي كانت من بين مرضعات الإله (ديونيوسوس) الذي التحق هو الآخر في صغر سنّه بالعالم الآخر¹⁴.

تكررت ضمن النقوش ظاهرة موت الأطفال في صغر سنّهم، والإشادة بتمتعهم، وخلودهم بشبابهم في العالم الآخر، مثلما يشير إلى ذلك النصب الجنائزي الذي تضمّن نقيشة الطفل (كارمينيوس - Karminios) ذوي الأصول التيسالونيقية، وزيّن برموز كونية مثل الهلال، والقمر، وأخرى نباتية كالزهرة، تصف لنا النقيشة حياته، وإعجاب الناس بأناشيده الشجية، ثم طلبه من المارة الانصراف، والبكاء عليه¹⁵، إنّ كل الدلائل المكتوبة، والمنحوتة توحى للبعد الأخروي لمضامينها.

وغالبا ما كان يتبع موت الأطفال الذي اعتبر موتا سابقا لأوانه (Acerbus) شعورا بالندم (Disucrium) بفقدان فرد من العائلة، فكانت الأمهات تلطمهن وجوههن، وتنفن شعرهن، وتضربن على صدورهن حتى يسيل الدّم¹⁶.

يشير مضمون نقيشة (قيصرية) لنبد الحزن على الميت، ونصح الأحياء بذلك، هذا جزء منها:

"... أنا الذي أرتاح هنا، لقد أخذني القدر المهلك، لقد كنت لطيفا مع أهلي، توقفي يا أمي عن ننف شعرك... وأنت يا أخي الصغير خفف من حزنك..."⁽¹⁷⁾.

تطلعت طبقة العبيد للخلود، مثلها مثل باقي طبقات المجتمع، تضمنت إحدى النقوش التي عثر عليها بقرطاجنة⁽¹⁸⁾ على معلومات، مفادها أن عبدا صغيرا لم يتذوق طعم الحرية في حياته، لكنه استطاع الحصول عليها بعد موته، وبالتالي أمكن استخلاص أن الموت بالنسبة للعبيد كان وسيلة لبلوغ الحرية الأبدية في العالم الآخر، وفي هذا المنحى وردت إشارات ضمن محتوى هذه النقيشة:

"أهديت للآلهة مان....."

.....آه أليس مؤلما أن نفارق من نحب؟

أما الآن، لقد منحك الموت الحرية الأبدية...."⁽¹⁹⁾.

كشفت التنقيبات عن نصب جنائزي سنة 1954م ب: (مكتاريس) ل: (يوليا هونوراتا Iulia Honorata) بالقرب من كنيسة (إبوليوس بيزو - Iulius Piso)، ومن بين ما نقشت عليه باللاتينية ما يلي: "...لقد عشت بورع داخل جسدي، وأنا الآن أتعمم في حدائق الإيليزي، وأشاهد من الأعالي الكواكب..."⁽²⁰⁾

يشير مضمون هذه النقيشة لمفاهيم فلسفية، إذ تتحدث روح (يوليا هونوراتا)، وتذكر أن جسدها الذي قام بعدة فضائل فيما سبق، كان مقرا لروحها التي غادرت، وبعد الموت خضعت هذه الروح للمحاسبة، وإذا برأت ستسكن (حدائق الإيليزي) التي تحكمها (بروسيرين)⁽²¹⁾.

وحسب نص هذه النقيشة يستخلص أن الأرواح تذهب بعد الموت إلى العالم السفلي، وبعد أن تعبر نهر (الأشرون)، تقف أمام (مينوس - Minos)⁽²²⁾ و(إياك - Eaque)⁽²³⁾ و(رادمانت - Rhadamante)⁽²⁴⁾، هؤلاء الذين يوجهون الصلحاء لحدائق الإيليزي للإقامة فيها، بينما يوجه الأشرار نحو (الترتار - Tartare)⁽²⁵⁾، لكنه لم يذكر ضمن محتوى هذه النقيشة موطن مملكة العالم السفلي، ويحتمل أن تكون داخل باطن الأرض، أو في الفضاء العلوي، وفكرة وجود حدائق الإيليزي في الفضاء العلوي كانت شائعة بين سكان بلاد المغرب القديم زمن (ترتيليان - Tertulien) الذي حدد موطن عالم الوثنيين ما وراء الكون، ونص نقيشة⁽²⁶⁾ (مكثر) يؤكد ذلك.

ورد ذكر نهر (ستيكس - Styx) أحد أهم أنهار العالم السفلي ضمن العديد من النقوش الجنائزية ببلاد المغرب القديم، إذ خلّفت التنقيبات على مجموعة منها، عثر عليها ب: (هنشير حمام الزواكرة) شمال غرب مدينة (مكتاريس) زين نصبها بمذبح، مرفوق بصورة ثور يهاجمه نمر، ورد ضمن النقيشة مختصرا ما يلي:

"... كان يتفنن في مصارعه النيران ..."

تفنن (سابينوس - Sabinus) في مصارعته الثيران...

..... يصيبه الثور مرتين، ويقذف به لظلمات نهر (ستيكس)..."⁽²⁷⁾.

كما احتوت مقبرة (بئر الجبانة) بقرطاجة على قطعة رخامية منقوشة على الجهتين، وردت ضمنها إشارة لهذا النهر، وقارب الإله (شارون)، وصاحب الإهداء العبد الإمبراطوري المدعو (نيكودروموس - Nicodromus) الذي أهدى هذه النقيشة ل: (بريما منيكييا-Prima Minicia) يشير فيها لهذا النهر:

" خصصت للآلهة (مان) المقدسة

(منيكييا بريما -Mincia Prima) التي عاشت ستة وعشرون سنة

(نيكودروموس -Nicodromus) العبد الإمبراطوري الذي أهدى هذا المعلم لزوجته الوريعة التي استحقت:

(... في سن مبكرة إنتزعت مني زوجتي العزيزة

عشت معها ستة وعشرون سنة دون مأخذ

كانت رومانية المولد، وليبية الممات، للأسف هم يقودونك نحو قارب نهر (ستيكس)... " (28) ، يستخلص من نصها إضافة لذكر نهر(ستيكس)، إشارة لمكان المولد، والممات الذي يقصد به آلام، وآثار الموت بعيدا عن الديار (29).

تعرفنا نقيشة (قرطاجة) (30) لإسم نهر في العالم السفلي يدعي ب: (ليتي-Léthé)، تأتيه أرواح الأموات لغرض التبرّد، ثم يتحوّل إلى مجرى مائي تستحم فيه الأرواح القادمة من العالم الدنيوي (31).

أمكن لنا التعرف على تطلعات سكان بلاد المغرب القديم لبلوغ (حدائق الإليزي) من خلال ما وصلنا مسطورا على نصبهم الجنائزية، كتلك التي وجدت بمقبرة بئر (الجبانة) بقرطاجة التي تعود لفترة حكم الإمبراطور (أنطونينوس - Antonius)، أو (مارك أورال-Marc Aurele) (32).

هذا نصها:

" خصصت للآلهة مان

هنا ترقد الجميلة الصغيرة (بريسيا- Priscilla)

عاشت ستة وعشرون سنة، بقيت وحيدة

إخوتها يتقاسمون الأحزان

لقد وضعوا أختهم داخل قبرها لكي تبلغ حدائق الإليزي... " (33).

وتضمن محتوى نصوص مجموعة أخرى على عنصر التفاؤل لبلوغ هذه الحدائق، عندما يكون الميت من بين الأفراد المترددين في حياته على معابد الآلهة، وهذا جاء في نص نقيشة (القصر - Ksser) بالقرب من (هنشير الداموس - Hr Damous) نرد منها ما يلي:

" خصصت للآلهة (مان)

(تيتوس رايكسيوس سيفروس – Titus Roecius Severus) عاش تسعون سنة

ها أنت قد كوفئت لأنك قد شرفت العديد من معابد الآلهة...

لقد عشت، وأبجرت أعمالا خيرية طوال حياتك

تسكن الآن حدائق الإيليزي بمروجها الغنية

أنت نائم بين أزهار الحدائق التي تغطيك

تستمع بضوء النهار...

أنا حفيدك (فكتور – Victor) أهديتك هذه الأبيات التي نقشتها على قبرك... " (34).

والشأن نفسه بالنسبة ل: (ماركوس إيميلوس بريموس – Marcus Aemilius Primus) من (مداوروش) الذي رافقته زوجته (يوليا ستينا – Iulia Setina) للعيش بحدائق الإيليزي³⁵. ووصول روح (موسيوس بوتانس – Mossius Potens) إلى (حدائق الإيليزي)، مثلما يوضحه نص نقيشة (عين غراب – Ain Ghorab) المحفوظة بمتحف (سوسة – Soussse) بتونس، نذكر منها ما يلي:

"...لقد كنت بين الأحياء فيما مضى

(موسيوس بوتانس – Mossius Potens) العظيم

أصبحت روحي ب: (حدائق الإيليزي)

هنا ولدت، وعشت ثلاثة وأربعون سنة

إقترت من فضلك أيها المسافر، وانتبه، وداعا إلى الأبد.... " (36).

خاتمة :

يستخلص من الدراسة أن تطلعات سكان بلاد المغرب القديم نحو العالم الآخر يكون قد شمل كل المقاطعات، ومختلف الطبقات الاجتماعية، ويمكن استنتاج أن نصوص شواهد القبور لم يكن محتواها سوى مرآة لقدر الميت، وكأن الميت قد تحوّل من خلال نصوصها بالمخاطب والمتحدث، بالرغم أن الأحياء هم الذين كانوا يجهزون لها موتاهم، ويكتبون عليها، مما يجعلنا نصل إلى نتيجة مفادها أن الحي هو الذي أوجد أسلوب التواصل، والسعي وراء الخلود في العالم الآخر، فحسّد هوية الميت بنبذة مختصرة عن حياته ونشاطه، أو لأسباب موته، ولإشارات عن حزن عائلته، وغالبا ما احتتمت نصوصها بعبارات الموت كعنصر تحرر الفرد، وبالتالي يمكن اعتبار أن تطلعات سكان بلاد المغرب القديم نحو العالم الآخر تصب في مسألة جوهرية تجعل من الموت حدثا طبيعيا، و عقلنة للامعقول المتمثل في الموت، والشأن نفسه بالنسبة لباقي شعوب الحضارات القديمة.

- 1- L.Foucher, Hadramettun, éd PUF, Paris, 1964, p 292, PLXXXIII.
- 2- Ibid, p293.
- 3- H.Fourner, Pilimpeko, Sacrophages romains de Tunisie, Karthage, XI, p119 (pp81-166).
- 4- F.Cumont, une épitaphe métrique de Madaure, CRAI, 1912, volume 56, numero3, p156.
* هي صورة سحيقة مظلمة تقع في قاع الجحيم، يعاقب فيها الأشرار. ينظر: خزعل الماجدي، المعتقدات الإغريقية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2004م، ص106.
- 5- Wilmanns.G, Th, Mommsen, Corpus Inscriptionum Latinarum, (= CIL, VIII), n° 21846.
- 6- L. Ladjimi Sebai , L'Amour en afrique romaine , Ant. Afr.26, 1990 , pp205-216
- 7- H. Slim, Ammar Mahjoubi, Khaled Belkija, Abdelmadjid Ennabli, Histoire générale de la Tunisie, T1 l'Antiquité, éd ,sud Edition ,Tunis, 2010.pp 284-288.
- 8- Ibid, p285
- 9- M.Leglay, le stèle de Julia Leporina Libyca,Arch.Epig, IV, 1956, pp 33-53.
- 10- H.Slim, Apropos d'un cimetière d'enfants, Africa Roman, I, 1984, pp 167-177.
- 11- L.Foucher, Hadramettun, éd PUF, Paris, 1964, pp268-271.
- ¹2- C. Vatin , Epigrammes funéraires grecque de Cherchel , Ant. Afr , 22, 1986 , p 113
- 13- Séneque, Consolation à Marcia, XXIII ,1, trad,de M.Charpentier –F. Lemaistre, Paris,1860.
- 14- C. Vatin, Une épigramme funéraire de Cherchel, Ant. Afr, 19, 1983, pp65-67
- 15- Ph. Leveau , Recherches sur les nécropoles occidentales de Cherchel (Caesarea Maurétaniae), 1880-1961, Ant.Afr, 19, 1983, pp 158-159 .
- 16- Francesca Prescendi, le Deuil à Rome : mise en scène d'une émotion, R.H.R ,n° 2, 2008, p 299
- 17- Année Epigraphique (=AE ,1985, 958), par A.Merlin puis à partir de 1964, par A.G. Pflaum et P.Wuilleumier.
- 18- CIL,VIII, 25006 (...Nunc mors perpetua libertatem dedit...)
- 19- CIL, VIII, 25006
- ²0- M.P .Nilson , A propos d'une inscription de Mactar , in Eranos , 46 , 1948 , pp159-161
- 21- G.Ch Picard, le mysticisme Africain, pp 462-463.
- 22- هو ابن (زوس- Zeus) و(أوروب- Europe) يتربع على كرسي العرش، ويتراأس مع إخوته (رادمانت- Rhadamante)، و(إياك- Eaque) محكمة العالم الآخر، ينظر:

J.Schmidt, Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine, éd. Larousse, Paris,2001, p128.

- 23- كلف بمحاكمة الأموات ذوي الأصول الأوروبية. ينظر: J.Schmidt, Op.cit, p63.
- 24- كلف بمحاكاة أرواح الموتى القادمة من إفريقيا وآسيا، ينظر: J.Schmidt, Op.cit, p63.
- 25- موقع بباطن الأرض في عمق الجحيم يفصله عن سطح الأرض مثل المسافة التي تفصل السماء والأرض، ينظر: J.Schmidt,op.cit, p 187
- 26- P.Boyancé, l'épithaphe de Iulia Modesta et l'exagèse symbolique de Virgile, RH.R , T ,142, n°2, 1952, p151
- 27- Chr.Hamdoune, Vie, Mort et poésie dans l'Afrique romaine, volume 330- 2011, éd. Latomus, Bruxelles, pp 74-75.
- 28- CIL, VIII, 12792.
- 29- Chr.Hamdoune, mouvements de populations dans les carmina funéraires africaines, in l'Africa romana, 16, 2006, pp 1001-1020.
- ³⁰- CIL,VIII, 12792 (...Inque tuo tristis uersatur pectore Lethe...)
- ³¹- J.Smidth, op.cit, p116
- 32- I.M.Lassère, recherches sur la chronologie des épitaphes païennes de l'Africa, Ant.Afr, 7, 1973, p139.
- 33- Ephemeris Epigraphica, Corporis Inscriptonum Supplementum, V, 450. Berlin, 1885.
- 34- CIL, VIII, 15569. (...Nun campos colis Elysios herbasque uirentes....)
- 35- De Patchère F.G, Musée de Guelma , Paris , 1900, pp23-24
Hic satus , hic situs...). 36- CIL ,VIII , 12118. (...Erro per Elisia prata.